



الاستقلال الوطني.. الطريق الوحيد ليمن قوي وموحد

أحمد الحبيشي

عندما يحضرنا العيد الثامن والأربعون للاستقلال ، الذي تزامن مع رحيل آخر جندي من قوات الاستعمار البريطاني، تبرز في الذاكرة الوطنية لشعبنا اليمني أربعة مشاهد تاريخية ذات دلالات ومعانٍ عميقة، ترمز إلى عظمة ذلك الإنجاز الوطني الذي تحققت يوم الثلاثاء من نوفمبر 1967م تتويجا لكفاح وطني تحرري طويل خاضه شعبنا في الجنوب اليمني المحتل وعمده بالدماء الأكية والتضحيات الجسيمة من أجل الحرية والاستقلال.. واستعادة الوجه الشرعي للوطن اليمني الواحد بعد عقود طويلة من الاستبداد والاستعمار والتجزئة. في الخامسة من مساء الأربعاء الموافق 29 نوفمبر قامت وحدة صغيرة من سلاح الجو الملكي البريطاني تمثل الدفعة الأخيرة

من جنود قوات الاحتلال الاستعماري بإزالة العلم البريطاني في منطقة الملاح بحي خور مكسر. والانتقال بعد ذلك بواسطة طائرة هيلوكبتر حربية إلى حاملة الطائرات البريطانية (إيجل) التي كانت تنتظر وصول هذه الطائرة بمن عليها من جنود في عرض البحر. أيضا بانتهاء حقبة طويلة من الاستعمار للجنوب اليمني المحتل دامت 129 عاماً.



المدافعون الدوائل عن الوحدة اجترحوا تضحيات كبيرة دون مقابل

المشاهد التاريخية ليوم الاستقلال المجيد أعادت الجنوب إلى سياق التاريخ الوطني اليمني

قامت بنشاط فكري بارز من خلال نشر أدبياتها، والقيام بالدراسة الواسعة لثورة 23 يوليو المصرية في شمال الوطن وجنوبه، ورفعت هذه الأحزاب، بقوة، شعارات الاستقلال الناجز والوحدة اليمنية.

على صعيد الحياة السياسية للشطر الشمالي من الوطن، وفي غمرة تنامي الكفاح الوطني والقومي التحرري اتسعت الإضرابات والمظاهرات والانتفاضات الشعبية في الشمال والجنوب على السواء، لتضع العملية الوطنية التاريخية المعاصرة للشعب اليمني أمام أبواب مرحلة جديدة وحاسمة.. فقد كانت الأوضاع السياسية في شمال الوطن تزداد توترا، في خضم سحق شعبي عارم، حيث اندلعت في 22 سبتمبر 1962م إضرابات الطلاب في مدارس مدينتي تعز واب، فيما سبق إلى سجون الإمام أبا، الطلاب من الفلاحين والمزارعين الفقراء، عقابا لهم على الانتفاضات التي قام بها أبناؤهم. وليس من قبيل الصدفة أن تنتهي مظاهرات

واضرابات طلاب المدارس في شمال الوطن في صبيحة 23 سبتمبر 1962م، ليبدأ في عدن، بجنوب الوطن المحتل، الزحف الشعبي الكبير على المجلس التشريعي في 24 سبتمبر 1962م احتجاجا على مشروع دمج عدن في الاتحاد الفيدرالي السلاطيني الاستعماري الذي كان يناقشه المجلس التشريعي في جلسته التي انعقدت في ذلك اليوم تمهيدا لإقراره. وفي جميع هذه الانتفاضات واجه شعبنا هائلة والإرهاب والقمع، بدءا بمعامات الدم التي كان يفرضها الحكم الإمامي المستبد في الشمال، ومرورا باعتقال المناه من الوطنيين في السجون والمعقلات في جنوب الوطن، وانتهاء بإبعاد المناه من أبناء الشمال إلى مناطق الأطراف. في غمرة هذا الوضع المتصاعد بالغضب والألم.. وبعد يومين من الزحف الشعبي على المجلس التشريعي بعدن احتجاجا على مشروع ضم عدن إلى اتحاد الجنوب العربي، ومحامكة أبا، ومن حولها الزمن الرابض فوق مدن الخوف ودخان القنابل المسيلة للدموع.. في غمرة هذا الوضع استيقظ شعبنا، فجر يوم السادس والعشرين من سبتمبر 1962م، ليعلن قيام أول جمهورية في شبه جزيرة العرب، ليبدأ رحلة جديدة في سياق العملية الوطنية التاريخية المعاصرة في اليمن.

مسار واحد ومتكامل

على امتداد السنوات الأربع منذ اندلاع ثورة 14 أكتوبر، ضد الاستعمار البريطاني في جنوب الوطن 1963 - 1967م، كانت الثورة اليمنية تخوض معارك وطنية متكاملة على جبهتي

والمعقلات بالجرى والمعتقلين ، فيما تم نفي المناه من أبناء المناطق الشمالية الذين استفد فهم كل من مشروع الحكم الذاتي لعدن ومشروع اتحاد امارات الجنوب العربي.

كان لحركة الإضرابات تأثيرها الواضح على أساليب الكفاح السياسي، حيث أدى دخول الطبقة العاملة، كقوة سياسية منظمة، في نقابات، إلى رفد العملية الوطنية التاريخية لشعبنا اليمني بطاقات كفاحية هائلة والارتفاع بها إلى مستوى أعمق. وإذا كان أقصى ما كانت تطالبه الفعاليات السياسية في الجنوب اليمني المحتل، قبل قيام النقابات، هو المطالبة بجعل اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللغة الإنجليزية، فقد ارتفعت عاليا بعد حركة الإضرابات العمالية، شعارات الاستقلال والوحدة اليمنية التي نقلت الحراك السياسي من الخطب والعرائض إلى الانتفاضات والمظاهرات والإضرابات.

وبطبيعة الحال لم تقف السلطات الاستعمارية موقف المتفرج من هذه التطورات، وهي التي كانت تحمل على درنغا منذ ابتلاع خطوطها الأولى، إيذانا بالتحام العمل النقابي بالعمل الوطني.. فقد حاولت السلطات الاستعمارية القضاء على الحركة النقابية، وضرب حركة الإضرابات المستخدمة سلاح النفي ضد العمال من أبناء الشطر الشمالي من الوطن، والفصل من الوظائف الحكومية، فيما عمدت الشوارع بالشرطة المسلحة التي أطلقت نيرانها على المتظاهرين من العمال والطلبة، وسقط بسبب ذلك العديد من الشهداء، والجرى.. في السياق ذاته قامت السلطات الاستعمارية باعتقال مئات العمال ونسقت مع أصحاب الصحف لطردهم من الوطنيين منها، وحظر نشر كتاباتهم، وعملت بالتنسيق مع أصحاب الشركات الأجنبية الاحتكارية لتطويق هذا المارد الوليد عبر نشر الإشاعات المغرضة وأثارة المشاعر الطائفية والقبلية والمناطقية، بمدف بث الفرقة بين صفوف العمال والقوى السياسية الوطنية.. على إثر ظهور الطبقة العاملة اليمنية في ميدان العمل السياسي الوطني وارتفاع شعار ((الوحدة اليمنية)) و((الاستقلال)) في إضرابات مارس 1956م العمالية، برز مشروع اتحاد إمارات الجنوب العربي، وذلك بهدف محاصرة شعار الوحدة اليمنية، وسلب الهوية اليمنية للجنوب المحتل عبر إيجاد استقلال شكلي وهوية بديلة باسم ((الجنوب العربي)).. وقد كانت سلطات وإمارات محمية عدن الغربية، التي وقعت معاهدات حماية وصداقة مع الاستعمار البريطاني، تشكل العمود الفقري لمشروع الاتحاد الفيدرالي، فيما بقيت سلطات محمية عدن الشرقية (حضرموت - المهرة - سقطرة) خارج إطار هذا الاتحاد الفيدرالي، حيث كان الاستعمار البريطاني يخطط لإقامة دولة فيدرالية في المنطقة الشرقية مستقلة عن الجنوب.

تزامن ظهور مشروع الاتحاد الفيدرالي، في مواجهة شعار الوحدة، مع انحسار موجة العدا للعمال الحزبي، حيث شهدت المنطقة تناميا ملحوظا لنشاط الأحزاب القومية واليسارية التي

ثورة واحدة من أجل وطن واحد

المتطوعين الذين انطلقوا من عدن وسائر جنوب الوطن المحتل للدفاع عنها، في أروع تجسيد عملي لوحدة النضال الوطني للشعب اليمني الذي التفت حول ثورته، ودافع عن مبادئها وأهدافها. على هذا الطريق جاءت ثورة 14 أكتوبر 1963م، بعد عام واحد من قيام ثورة 26 سبتمبر ونظامها الجمهوري لتفتتح مرحلة جديدة ومتطورة في النضال التحرري ضد الاستعمار، إذ أصبحت جمهورية 26 سبتمبر قاعدة صلبة للحركة الوطنية اليمنية بأسرها، وخلفية واسعة لرحب التحرير الشعبية التي إاضحتها فصائل ثورة 14 أكتوبر، تحت شعارات الاستقلال والوحدة بدعم وإسناد من النظام الجمهوري في شمال الوطن، الأمر الذي أسهم في تعميق الوحدة العضوية للثورة اليمنية، وتأكيد وادحياتها في إطار عملية وطنية ثورية موحدة الأهداف والمبادئ. بوسعا القول إن ثورة 26 سبتمبر 1962م كانت منذ قيامها، امتدادا متطورا لنضال الحركة الوطنية اليمنية المعاصرة، منذ الثلاثينيات وعلى امتداد الأربعينيات والخمسينيات.. ثم جاءت بعد ذلك انطلاقة ثورية جديدة على خلفية هذه الثورة تمثلت بقيام ثورة 14 أكتوبر المسلحة 1963م، التي عملت على توسيع النطاق الجغرافي للحراك الثوري الجماهيري بتحويل الجنوب المحتل إلى ساحة ممتدة للمقاومة المسلحة ضد الاستعمار وكرانه.

ومما له مغزى عميق أن يكون مفجرو ثورة 14 أكتوبر هم أولئك المقاتلون الإبطل الذين توجهوا من ردان إلى صنعاء للمشاركة في الدفاع عن ثورة 26 سبتمبر، وبعد انتهاء مهمتهم الوطنية عادوا إلى قراهم في ردان، وقاموا بالقوات البريطانية التي جاءت لمحاصرتهم ومصادرة أسلحتهم، عقابا لهم على مشاركتهم في القتال دفاعا عن جمهورية سبتمبر. وخلال هذه المواجهات، التي بدأت يوم الحادي عشر من أكتوبر 1963م، استشهد قائد هذه المجموعة المقاتلة وهو الشيخ غالب بن راجح ليوزة صبيحة يوم 14 أكتوبر 1963م الذي تحول إلى شرارة أشعلت ثورة شعبية مسلحة اجتاحت كل الجنوب المحتل.

القاعدة العمالية مع ظهور بعض الأشكال النقابية في الفترة 1951 - 1953م مثل رابطة العمال والفنيين عام 1951م، ونقابة عمال وموظفي خطوط عدن الجوية، وجمعية موظفي سلاح الطيران عام 1953م.

ومما له دلالة أعمق، بهذا الصدد، أنّ أول شرارة أشعلت إضرابات مارس المجيدة عام 1956م كانت الإضراب الذي قام به عمال وموظفو (بيت البس) وهي أكبر شركة تجارية أجنبية في عدن وجنوب الجزيرة العربية، احتجاجا على طرد هذه الشركة للشهيد محمد ناصر محمد، عقابا له على دوره البارز في تأسيس نقابة عمال وموظفي شركة (البس) وانتخابه سكرتيرا لها. وقد أُنهب النصر الذي حققه العمال بإعادته إلى عمله، حماس العمال في الشركات الأخرى، وشجعهم على المطالبة بحقوهم المشروعة ، وفيما بعد ثابرت العناصر الوطنية الناشطة على تقوية قنوات الاتصال بالعمال والفئات الأخرى كالطلاب والنساء، وساعدت على تنظيمها وصياغة مطالبها وتوعيتها بالقضية الوطنية حركة واتحاد الطلاب التي كانت تلقى في جمعات العمال في البراقات الشهيرة بقرب ميناء، نتاهي، حيث جرى هناك - لأول مرة - الاحتفال بعيد أول مايو، ورفع شعار الاستقلال والوحدة اليمنية إيذانا بدخول العمل الوطني مرحلة حاسمة وتوعبية.. يمكن من قبيل الصدفة أن تنفجر، بعد إضرابات مارس العمالية، حركة واسعة من الإضرابات الطلابية ضد السياسة التعليمية، التي شملت جميع المدارس الحكومية، بالإضافة إلى إضرابات عمال ملحج الكود في أبين، والمظاهرات الشعبية الضخمة التي انطلقت في شوارع عدن في مايو 1956م احتجاجا على زيارة اللورد لويد جورج وكيل وزارة المستعمرات البريطانية لعدن، والإضراب العام في أبريل 1958م، ضد فتح أبواب الهجرة الأجنبية إلى عدن من بلدان الكومنولث، وانتفاضة أكتوبر 1958م ضد انتخاب المجلس التشريعي المزيف الذي تزامن مع الاعلان عن مشروع الحكم الذاتي لعدن ومشروع اتحاد امارات الجنوب العربي .. بالإضافة إلى إضراب عمال أمانة ميناء، عدن لمدة 14 يوما في أواخر 1959م، ثم الإضراب العام في أغسطس عام 1960م ضد قانون منع الإضراب.

وفي عام 1958م اندلعت انتفاضة أكتوبر التي وقعت في اليومين الأخيرين من أكتوبر في مواجهة مشروع الحكم الذاتي لعدن ومشروع الاتحاد الفيدرالي لإمارات الجنوب الذي كانت بريطانيا آنذاك تعد لعدنة لتنفيذه قبل الاعلان عنه والبدء، به عام 1959م..وقد عاش مواطنو مدينة عدن لحظات رهيبه خلال هذه الانتفاضة التي تمثلت بالإضرابات والمظاهرات العارمة ضد هذين المشروعين الاستعماريين، ما دفع الإدارة الاستعمارية إلى فرض حالة الطوارئ واعلان حظر التجول ونشر طائرات الميولكيترو والذبابات في سماء المدينة وشوارعها، حيث سقط العشرات من الضحايا والشهداء، وامتازت المستشفيات

بعد ساعات قليلة، وتحديدًا في تمام الساعة الثانية عشرة ودقيقة واحدة من صباح يوم الخميس الموافق 30 نوفمبر تمّ في مدينة التواهي ومدينة الشعب التي كانت تسمى (مدينة الاتحاد) رفع العلم الوطني لدولة جديدة ذات نظام جمهوري حملت اسم اليمن على أنقاض أربعة كيانات انصالية ضمت 22 سلطنة وإمارة وولاية ومشيخة، هي دولة اتحاد الجنوب العربي وسلطنة حضرموت الكثيوي وسلطنة حضرموت القعيطي وسلطنة المهرة وسقطرى حيث تمّ دمج هذه الكيانات الأربعة في إطار دولة واحدة اسمها ((جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية)) والتي تحوّلت فيما بعد إلى ((جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية)) كخطوة على طريق الوحدة اليمنية، بما هي الهدف الاستراتيجي للثورة اليمنية (26 سبتمبر - 14 أكتوبر))، مع الأخذ بعين الاعتبار أن أعلام الكيانات الاتحادية والسلطانية الأربعة خارج مدينة عدن، كانت قد نزلت عقب سقوط هذه المناطق بيد الجبهة القومية قبل بضعة أشهر من انسحاب القوات البريطانية من عدن وعلان الاستقلال - بحرف النظر عن وجهات النظر المختلفة حول ظروف وملابسات سقوط هذه المناطق بيد الجبهة القومية دون غيرها من فصائل ثورة 14 أكتوبر ، وتحالف الجيش الاتحادي التابع لدولة اتحاد الجنوب العربي مع الجبهة القومية في الحرب الأهلية التي شهدتها مدينة عدن خلال الفترة 3 - 6 نوفمبر وانتمت بتصفية جبهة التحرير والتنظيم الشعبي من مدينة عدن التي استولت عليها الجبهة القومية بدعم من الجيش الاتحادي في تلك الحرب الأهلية وتمهيدا لانفراد الجبهة القومية بالتفاوض مع بريطانيا بشأن الاستقلال وتسلم السلطة وإقامة نظام الحرب الواحد، وما ترتب على ذلك من أثمان باهظة دفعتهما الجبهة القومية بدماء قادتها ومناضليها نتيجة لانقسامات الداخلية التي أصابها كحصوله لاختلاف المواقف والرؤى حول مستقبل العلاقة بين الجبهة القومية وقيادات الجيش الاتحادي التي تحالفت معها في الحرب الأهلية ضد جبهة التحرير والتنظيم الشعبي ، ثم أصبحت شريكة لها في السلطة بعد الاستقلال في إطار نظام الحزب الواحد..

بعد 22 عاما من ذلك اليوم التاريخي، احتضنت مدينة عدن الباسلة مشهداً تاريخياً ثائلا تجسد بالتوقع على اتفاق 30 نوفمبر 1989م للحدود بين قيادتي شطري اليمن ممثلة بالآخ الرئيس علي عبدالله صالح والآخ على سالم البيض الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، وسط تأييد واسع وغير مسبق من كافة جماهير الشعب اليمني وقواه الوطنية باستثناء، فرع التنظيم الدولي لإخوان المسلمين الذين عارضوا هذا الاتفاق الودودي ونهاضوا الإجراءات التنفيذية المكملة له بصراحة ووضوح.

وبعد ستة شهور من ذلك المشهد التاريخي، وتحديدًا في ظهيرة يوم الثاني والعشرين من مايو 1990م، ارتفع في ذات المكان الذي شهد ارتفاع علم الاستقلال قبل 22 عاماً، العلم الوطني للجمهورية اليمنية الموحدة، إيذانا بتدشين مرحلة تاريخية جديدة من النضال الوطني على طريق بناء يمن حر ديمقراطي موحد.. وهو الشعار الذي ارتفع لأول مرة في مدينة عدن منتصف الخمسينيات لمواجهة المشاريع الاستعمارية التي استهدفت تجزئة الجنوب المحتل وطمس هويته اليمنية وتلغيق هويات انصالية بديلة، أخذت مداها عبر تسويق مشروع اتحاد الجنوب العربي ومشروع دولة حضرموت الكبرى.

وحين يحتفل شعبنا اليمني العظيم بعيد الأربعين للاستقلال الذي أنجزته ثورة 14 أكتوبر كامتداد لثورة 26 سبتمبر، تبرز في الذاكرة الوطنية الحية هذه المشاهد التاريخية الأربعة التي احتضنتها مدينة عدن اليمنية الباسلة، بما تنطوي عليه من دلالات ومعانٍ عظيمة ملهمة كفاحية وطنية اجترح شعبنا اليمني وملازمه الوطنية عبر نضاله الطويل من أجل الحرية والاستقلال والوحدة..لا ريب في أنّ القراءة الموضوعية لهذه المشاهد التاريخية العظيمة تستوجب تأمل المرحلة التاريخية الجديدة التي بدأت يوم الثلاثاء من نوفمبر 1967م برحيل آخر جندي استعماري وإرتفاع علم ((جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية)) التي استعادت الهوية اليمنية للجنوب المتحرر من الاستعمار، بعد أن كنّست وإلى الأبد مشروع دولة اتحاد الجنوب العربي، ثمّ نتوجت يوم 22 مايو 1990م بإرتفاع علم الجمهورية اليمنية الموحدة الذي يرمز إلى استعادة وحدة الوطن اليمني أرضا وشعبا كثرمة لوحدة النضال الوطني الذي خاضه شعبنا من أجل الاستقلال والوحدة.. بمعنى أن الاستقلال الوطني الناجز كان الطريق الوحيد للوحدة، وهو ما يستدعي تسليحا للنضال، على فصول تاريخية حاسمة من معارك الدفاع عن الوحدة ، خاضها الوطنيون اليمنيون ضد مشاريع الاستقلال المزيف التي سعى الاستعمار وكرانه إلى تسويقها بهدف طمس الهوية اليمنية للجنوب المحتل، وبناء، دويلات انصالية شكلية في سياق المخططات الاستعمارية الرامية إلى سلخ الجنوب المحتل عن الوطن اليمني وتلغيق هويات بديلة عنه. مع الأخذ بعين الاعتبار أن المدافعين الأوائل عن قضية الوحدة اليمنية اجترحوا تضحيات كبيرة بدون مقابل، وبدون أن يطالبوا بأرض وامتيازات مقابل دفاعهم البطولي عن الوحدة .

بوسعي القول إن من الصعب إعادة اكتشاف الأبعاد الوطنية للمشهد التاريخي الأربعة التي أشرت إليها سابقا بدون التعرف على أبرز المحطات التي مهدت لهذه المشاهد عبر مسار وحدة النضال الوطني.. وهي المحطات التي تمحورت حول قضيتي الاستقلال الناجز والوحدة اليمنية في مواجهة مشاريع استعمارية استهدفت تمرير استقلال شكلي، وتسويق مشروع دولة الجنوب العربي ومشروع دولة حضرموت الكبرى، وهما مشروعان انصاليان دولتين ((مستقلتين)) في الجنوب اليمني، كان يتم التسويق لهما من خلال ثقافة سياسية انصالية تمثلت في تحالف القوى السياسية والمنابر الإعلامية على المطالبة باستقلال عدن والمحميات الشرقية والغربية، ودمجها في دولة مستقلة تحمل هوية ((الجنوب العربي))، وهي ثقافة ملتبسة ومأزومة واجمها الوطنيون اليمنيون بثقافة وطنية يمنية وحدوية قامت على ترقيتها معارك الدفاع الأولى عن الوحدة اليمنية في مواجهة المشاريع الانصالية التي استهدفت سلخ الجنوب اليمني المحتل عن الوطن اليمني الواحد.

منعطف حاسم

في بداية الخمسينيات، وعلى إثر تأميم حكومة مصدق الوطنية للعمليات النفطية في إيران، أنشأت شركة «بريتيش بترولويوم» مصافي الازيت البريطانية في عدن، التي أدى قيامها إلى زيادة وزن الطبقة العاملة نوعا وعددا. وقد ترافق توسع